خطبة الجمعة: 23/12/2011م الشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال

سلسلة قرأت في كتاب

(الإيثار)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وأحثكم وإياي على طاعة الله، فنحن اليوم في دار ابتلاء فالسعيد من وعظ بغيره، والسعيد من ملأ حياته طاعة، وغير السعيد من ذهب اتجاه المعصية،أو انشغل عن الطاعات بالأهواء والملذات، إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

ثم أستفتح بالذي هو خير: قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:5-10].

وقال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:8-9].

وقال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:8-9].

جاء في تفسيرها عند ابن كثير: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، أي: يقدّمون المَحَاوِيجَ على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالنَّاس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أفضلُ الصَّدقة جَهدُ المقلّ)) [رواه أبو داود والنسائي]، وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَف اللهُ بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان:8] وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177]؛ فإنَّ هؤلاء يتصدَّقون وهم يحبُّون ما تصدَّقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه.

أخرج البخاري عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: **أتى رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أصابني الجهدُ، فأرسَلَ إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئاً، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم:** ((ألا رجل يُضَيّفُ هذا اللَّيلة، رحمه الله؟)). **فقام**

رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضَيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تَدّخريه شيئاً. فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصِّبيَّة. قال: فإذا أراد الصِّبْيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالي فأطفئي السِّراج ونَطوي بطوننا اللَّيلة. ففَعَلَت، ثمَّ غدا الرَّجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ((لقد عجب الله، عزَّ وجلَّ –أو: ضحك– من فلان وفلانة))، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وفي رواية لمسلم: (تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة –رضي الله عنه–).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سَلِمَ من الشُّحِّ فقد أفلح وأنجح.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما **أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إيَّاكم والظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ من كان قبلكم؛ حَمَلَهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم))** [رواه مسلم].

وروى ابن جرير عن أبي الهياج الأسدي قال: (كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: "اللَّهم قِني شُحَّ نفسي" لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إنِّي إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي لم أسرِق ولم أَزْنِ ولم أفعل..، وإذا الرَّجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، **عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بَريء من الشُّحِّ مَن أدَّى الزَّكاة، وقرَى الضَّيف، وأعطى في النَّائبة))** [رواه البيهقي].

وأخرج السُّيوطي في "الدُّر المنثور" في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُهدِيَ لرجل من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رأسُ شاة، فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَه أحوجُ إلى هذا منَّا.

فبَعَثَ به إليهم، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتّى تداولها أهل سبعة أبيات حتَّى رجعت إلى الأوَّل فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾.

وذكر القرطبي في تفسيره: (كان المهاجرون في دور الأنصار، فلمَّا غنم عليه الصَّلاة والسَّلام أموال بني النَّضير، دعا الأنصارَ وشَكَرَهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثمَّ قال: ((**إن أحببتم قَسَمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم**)). فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما: بل نقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**اللَّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار**)). وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعطِ الأنصار شيئاً إلا ثلاثة كان بهم فقرٌ وحاجةٌ ونزلت الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السَّابعة عشرة في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(الإيثار)

قرأتُ في كتاب عنوانه: "قصص المؤمنين" للدُّكتور محمود البرشة وهو طبيب من أبناء هذا الحيِّ حائز على شهادة الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية، قرأت في كتابه كلاماً عن الإيثار فأحببت أن أُطلِعَكم على بعض ما جاء فيه لحاجتنا في هذه الأزمة إلى هذا الخُلُق الإسلامي الأصيل.

يقول المؤلف: (الإيثار: أن يقدِّم المرء غيرَه على نفسه في النَّفع له والدَّفع عنه، وذلك يَنشَأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبَّة والصَّبر على المشقَّة.

تقول: آثرَ فلانٌ فلاناً، أي: اختاره وقدَّمه، وتقول: آثرتُ أن أقول الحقَّ، أي: فضَّلت أن أقوله، وقدَّمته على غيره.

وضدّ الإيثار الأَثَرَة، وهي تفضيل المرء نفسه على غيره).

ثم راح المؤلِّف يسوق قصصاً نافعةً في الإيثار أختار لكم منها أربعة:

1) روى الإمام أحمد في مسنده عن شهاب بن عباد أنَّه سمع بعض وفد عبد القيس وهم يقولون: قَدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاشتدَّ فرحهم بنا، فلمَّا انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا فقعدنا، فرحَّب بنا النَّبي صلى الله عليه وسلم ودعا لنا، ثم نَظَر إلينا فقال: ((**من سيِّدكم وزعيمكم؟**)) فأشرنا بأجمعنا إلى المنذر بن عائذ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم: ((**أهذا الأشجّ؟**)) قلنا: نعم يا رسول الله، فتخلف بعد القوم فعقل رواحلهم، وضم متاعهم، ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السَّفر ولبس من صالح ثيابه، ثمَّ أقبل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقعد عن يمينه، فرحّب به وألطفه، وسأله عن بلاده وسمَّى له قرية قرية، فقال: بأبي وأمي يا رسول الله، لأنت أعلم بأسماء قرانا منَّا، فقال: ((**إني قد وطئت بلادكم وفُسِحَ لي فيها**))، قال: ثمَّ أقبل على الأنصار، فقال: ((**يا معشر الأنصار، أكرموا إخوانكم، فإنَّهم أشباهكم في الإسلام، أشبه شيئاً بكم أشعاراً وأبشاراً، أسلَموا طائعين غير مكرَهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتَّى قُتِلوا**))، قال: فلمَّا أن أصبحوا، قال: ((**كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم؟**))، قالوا: خير إخوان ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلّمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى وسُنَّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم، فأعجبت النَّبي صلى الله عليه وسلم وفرح بها.

2) وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه، أنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قَدِم المدينة، فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الرَّبيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شَطْرَ مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتَّى أطلّقها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السُّوق، فدلُّوه على السُّوق، فذهب فاشترى وباع ورَبِح.

3) وذَكَر الإمام القرطبي في تفسيره عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي –ومعي شيء من الماء– وأنا أقول: إن كان به رَمَق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع

آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

4) وروى الواقدي المؤرِّخ قال:كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنَّا كنفس واحدة، فنالتني ضائقة شديدة وحضر العيد، فقالت امرأتي: أمَّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشِّدة، وأمَّا صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم، لأنَّهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرَّثَّة، فلو احتلْتَ في شيء تصرفه في كسوتهم، قال: فكتبت إلى صديق لي –وهو الهاشمي– أسأله التَّوسعة عليَّ بما حضر، فوجَّه إليَّ كيساً مختوماً ذكر أنَّ فيه ألف درهم، فما استقرّ قراري حتَّى كتب إليَّ الصَّديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمي، فوجَّهتُ إليه الكيس بحاله، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي، فلمَّا دخلتُ عليها استحسنَتْ ما كان منِّي ولم تعنِّفني عليه، فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته، فقال لي: اصدقني عمَّا فعلتَه فيما وجهتُ به إليك، فعرفته الخبر على وجهه، فقال لي: إنَّك وجهت إليَّ وما أملك على الأرض إلا ما بعثتُ به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة، فوجّه كيسي بخاتمي، قال الواقدي: فتواسينا ألف درهم فيما بيننا، ثمَّ إنَّا أخرجنا للمرأة مائة درهم قبل ذلك، ونمى الخبر إلى المأمون فدعاني، وسألني فشرحتُ له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد منَّا ألفي دينار، وللمرأة ألف دينار.

أيها الإخوة:

هذا شيء ممَّا قرأتُ عن الإيثار، وإنَّك مهما آثرتَ اليومَ إخوانَك بشيء من الطَّعام أو بشيء من وسائل التَّدفئة أو بشيء من المال فإنَّك مأجور مبرور، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:9].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فَلْيَفْعَلْ)) [رواه مسلم]

أخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين